القوس العذراء

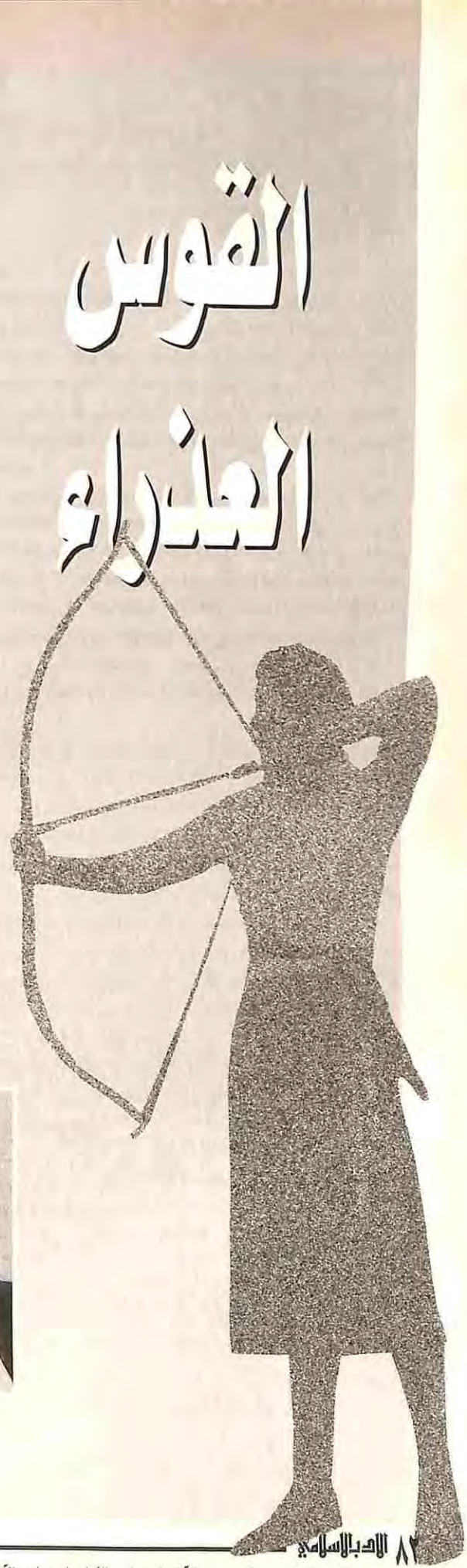

درة ساطعة هذه بين سائر الدرر، و«آية هذه من الفن محكمة» بين آيات الفن المحكمات، وقعت عليها وأنا أدور بالبصر العجلان في سوق الكتب الحديثة الصدور، فكنت - حين وقع عليها البصر - كمن كان ينبش قي أديم الأرض بين المدر والحصى، ثم لاحت له بغتة - لتخطف منه البصر ببريقها - لؤلؤة.

هو كتاب من ست وسبعين صفحة صغيرة، رقمت أسطرها صفحة صفحة، كما ترقم حبات الجوهر الحر يضعها الخازن في صندوق الذخائر، لكي لا تفلت منها عن الرائي جوهرة ولو قد كانت لي الكلمة عند طبع الكتاب، لأمرت بترقيم محتواه لفظة لفظة، لأن كل لفظة من كل سطر لؤلؤة.

□□□

وللكتاب قصة ترويها صفحاته، فإذا هي قصة الفن الخالد كيف تنبثق آثاره من ينبوع الفطرة الإنسانية، فيظل يتلقفه على مر العصور كل ذي فطرة سوية، يتملاه ثم يضيف إليه، ولقصة الكتاب ما يشبه التمهيد لها: لقاء ذات يوم بين رجلين اتفق فيهما الطبع الراسخ بجذوره على عقيدة مؤمنة بتجويد العمل كائنا ما كان، وفي هذا التجويد بلغنا رسول الله عن ربه بلاغاً يضيء لكل حي نهج حياته، ويمسك عليه هدي فطرته، إذ قال: «**إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه**».. وأما الرجلان اللذان التقيا ذات يوم عن طبع مشترك في إتقان العمل، فهما أديبنا الكاتب الشاعر الأستاذ محمود محمد شاكر، والأستاذ شفيق متري صاحب دار المعارف - ولم يكونا قد التقيا من قبل (فيما يروي الأستاذ عادل الغضبان في ضميمة قصيرة ألحقها بالكتاب) - «وتطرق الحديث بين الرجلين إلى الكلام على العمل وتجويده، والفن وسحر أواخيه، فإذا بالرجلين روحان مؤتلفان متعارفان» وأراد الأستاذ شاكر

بقلم الدكتور:
زكي نجيب محمود

القوس العذراء

أن يخلد هذا اللقاء وما دار فيه من حديث عن العمل المتقن وصلته بالفن، فكيف خلده؟

دار في نفسه أول ما دار أن **لا فرق بين العمل يتقنه صاحبه ويضع قلبه فيه، وبين الفن المبدع الخلاق، وليس نقاد الفن جميعا على رأي واحد في ذلك، فمنهم من يفرق بين العمل يراد لنفعه وثمرته، والفن يراد لذاته ولنشوة النفس بما فيه، وأن هذا الفرق بين العمل الجيد والفن المبدع ليظل قائما، مهما بلغ العمل من أبعاد الجودة والإتقان**، وأما أديبنا شاكر فلا يميز بين عمل جاد وفن أبدع.

وعن هذه العقيدة عنده في العمل والفن، أمسك القلم ليكتب ـ بادئ ذي بدء ـ رائعة من روائع النثر، يميز فيها الإنسان من سائر الأحياء والأشياء، في أن هذه تسير على نهج لا يتغير ولا يتبدل: «تولد الذرة من النمال، وتنمو، وتبدأ سيرتها في الحياة، وتعمل فيها عملها الجد، وتفرغ من حق وجودها، حتى تقضي نحبها وتموت هكذا هي مذ كانت الأرض وكانت النمال: لا تتحول عن نهج، ولا تمرق من هدي، وتاريخ أحدثها ميلادا في معمعة الحياة، كتاريخ أعرق أسلافها هلاكا في حومة الفناء لا هي تحدث لنفسها نهجا لم يكن، ولا هي تبتدع لوارثها هديا لم يتقدم».

ذلك شأن الحيوان يسلك المسالك بغريزته، وشأن الجماد يسير على سنة الله في خلقه، يجيء عمل الحيوان وسير الجماد، أتم ما يكون العمل وأكمل ما يكون السير لكنهما يجيدان عن غير وعي ولا مشيئة، وعن غير حب ـ ولا كراهية ـ لما يعملان، وأما الإنسان فشأنه آخر، لا يجيء حقه على نهج سابقه، فله مشيئة حرة ومن ثم كانت حيرته: «جار وعدل، فعرف وجرب. أخطأ وأصاب، ففكر وتدبر...

جاشت نفسه حتى اندفقت صبابة منها فيما يعمل، وتضرم قلبه، حتى ترك ميسمه فيما أنشأ، فتبدله بصنع يديه، لأنه استودعه طائفة من نفسه، وفتن بما استجاد منه، لأنه أفنى فيه ضراما من قلبه، وإذا هو يستخفه الزهو بما حاز منه وملك، ويضنيه الأسى عليه إذا ضاع أو هلك».

بهذه النغمة الشجية القوية طفق أديبنا شاكر يكتب بضع صفحات من النثر، يبث فيها نظرته **أن الإنسان ـ لا كسائر الأحياء والأشياء ـ تصله وشائج النفس والقلب بصنع يديه إذا هو استودعه طائفة من نفسه وضراما من قلبه، فعندئذ يزهى بما صنع، ويأسى له إذا ضاع، ولعمري تلك من خصائص الفن عند مبدعه، وإذن فلا فرق بين صناعة ـ هذا شأنها ـ وفن.**

ثم ماذا؟.

ثم يقع أديبنا شاكر بين ذخائر الأدب العربي القديم على ذخر نفيس، تتأيد به نظرته إلى العمل المتقن كيف تربطه الروابط بصانعه حتى لكأنه قطعة منه، بل إنه لكذلك، لأنه بعض لحمه ودمه، وزفرة من نفسه ونفثة من قلبه، وأما الذخر النفيس الذي وقع عليه أديبنا شاكر، فقصيدة للشماخ، وهو صحابي أدرك الجاهلية ثم أسلم، يصف بها قواسا كيف صنع قوسا فأجاد، فتعلق بها قلبه، ولما باعها وذهب بها شاريها، نظر إلى المال في يده ـ على كثرته ـ فاذا هو الهباءة التافهة قياسا إلى قطعة الفن التي ضاعت.

وقصيدة الشماخ التي تروي قصة القواس وقوسه، عدد أبياتها ثلاثة وعشرون، تجيء في أول الكتاب مشروحة، لتأتي بعدها الرائعة النثرية التي حدثتك عنها، كتبها أديبنا محمود شاكر بيانا لصلة القربى بين العمل والفن، وإعلانا بأن العمل الذي لا يبلغ مبلغ الفن، يكون دليلا على فساد الفطرة عند صانعه.

ثم ماذا؟.

ثم يأتي قلب اللؤلؤة ولبابها، إذ يلتقي في إبداع الفن شاعران، أحدهما هو الشماخ بقصيدته، والثاني هو محمود شاكر الشاعر، فتلقاك إزاء نسج محبوك، تتضافر فيه أبيات من قصيدة الشماخ مع أبيات من قصيدة شاكر، فخمسة وأربعون بيتا يمهد بها شاكر، تجيء بعدها ثلاثة أبيات من الشماخ، فعشرة من عند شاكر، فخمسة من الشماخ، فسبعة عشر من هنا، فاثنان من هناك، وستة عشر من هنا، وثلاثة من هناك، وعشرون من شاكر، واثنان من الشماخ، وثمانية من شاكر فخمسة من الشماخ، فسبعة وخمسون من شاكر يتلوها بيتان من الشماخ، فستة وثلاثون من شاكر، يجيء بعدها بيت واحد هو ختام قصيدة الشماخ، ثم يختم شاكر قصته بخمسة وسبعين بيتا.

فما القواس وقوسه، وماذا فيهما من عبرة لمن يعتبر؟.

كانت القوس في ضمير الغيب، حين كانت في كنف منيع من شجر، لينمو عودها في مأمن وعلى مهل، لكن عامرا القواس شقت عينه الحجب إليها، وطفق يتغلغل في غصون الشجر الملتفة المتشابكة النابت بعضها في أصول بعض، حتى بلغ مكمن العود، فاستودعه الشمس عامين كاملين، لا يرفع عينه عنه، ولبث العود يمتص ماء لحائه، وبعدئذ أخذ القواس في مناجاة قوسه حتى لانت بين أصابعه، فلواها، وسواها ثم سواها، فلما أن اكتملت قوسا، إذا ما

فارقها السهم رنت وأعولت، وريع الوحش من هاتف السهم المنقض، إلا أن القوس ـ من كثرة ما عاناه باريها ـ لم تعد في عينه قوسا، بل تبدلت في عينه غادة معشوقة حسناء، يلفها في الحرير، وهو في أسماله، ووافى موسم الحج فاصطحب القواس معشوقته، إليه، فلمحها محب فانبرى كالصقر ينقض إليها، وقدم لصاحبها أغلى الثمن ليشتريها، إذ قدم الذهب والفضة وثياب الحرير ومقروظ الجلد، ولو كان القواس يبتغي الثراء من قوسه لوجد بغيته، ولكنه نظر إلى المال وإلى القوس، فوجد نفسه وقلبه وروحه في هذه، وأما ذاك فلم يجد فيه إلا عرضا يزول، لا تربطه بالنفس آصرة، فأبى أن يبيع قوسه، لكن غواية الناس من حوله مالت به حيث لم يكن هواه، فباع القوس، وأخذها الشاري وغاب بها عن مرمى النظر، فالتفت إلى المال في كفه، فإذا الكف كأنها خالية، فبكى.

ولست أدري كيف أقص عليك على أي صورة جاء حديث القواس وقوسه في شعر الشماخ وفي شعر شاكر، إلا أن تقرأ شعرهما لتقف ـ كما وقفت ـ ذاهلا أمام هذا البناء الفني القوي المكين، ثم لا تكاد تفرغ من تلاوة هذا الشعر الرائع حتى تراك منقادا بقوة الجذب إلى قراءته من جديد، لتنعم بعظمة النفس الإنسانية حين تبلغ ذروة الإجادة، وكم إجادة هنا؟ إجادة القواس في صناعة قوسه، وهو الذي تدور حول إجادته الرواية، وإجادة الشماخ في قصيدته الصلبة العبقرية التي تسير بين كلماتها وكأنك تسير في مفاوز جبل أشم يروعك بشموخه ويقطع عليك الأنفاس بجبروته، وإجادة شاعرنا محمود شاكر، الذي كدنا لا نعرفه شاعرا حتى أطل علينا بهذه الروعة الرائعة، وفوق هذا وهذا وذاك إجادة شاعر ثالث هو محمود حسن إسماعيل الذي قدم للكتاب بقصيدة عن تلك القوس الموحية البليغة هي من غر القصيد.

نعم إنني لا أدري كيف أقص عليك قصة **القوس العذراء** على أي صورة جاءت شعرا إلا إن تقرأ الشعر نفسه، وحسبي أن اقدم لك نتفا من فن شاكر في شعره، فهو الذي تقمص روح القواس في عشقه لقوسه التي براها فأتقن تقمصه حتى لقد انقلبت القوس في فؤاده ـ فؤاد محمود شاكر ـ غادة يتعشقها، تنصاع له فيهوى، وتتمرد عليه فينالها تأديبا وتهذيبا:

عصته وساءته أخلاقها
نشوزا.. فلما التوت كالمدل
أعد الثقاف لها عاشق
يؤدبها أدب الممتثل
وعض عليها فصاحت له
فأشفق إشفاقة وانجفل

ويمضي الشاعر في وصفه لمعالجة القواس قوسه طوال عامين كاملين، حتى انتهى الأمر بأن: أطاعته من بعد أن لوعته بالوجد عامين حتى نحل، ولما اكتملت له صناعتها، أهدى لها حلية صاغها بكفيه، حلية تخيرها من حشا الذئاب، وأعد لها وترا كالشعاع، وبعدئذ ضم إلى حضنها سهما مريشا كأنه أخ لها صغير.

فضمت عليه الحشا رحمة
وكادت تكلمه... لو عقل

فجن جنون المحب الغيور...

فجذب المحب الغيران وتر القوس، وأرسل السهم الذي ما كاد يضعه بيديه في كفالة أخته الكبرى، حتى أخذته منه الغيرة، وبات الرجل وقوسه الجميلة ليلة معشوقة كأنما هما الحبيبان يتغازلان. وما شهد قطرات الندي على جسدها الأملد، حتى أسرع إلى ثوب من المخمل يلفها به.

كساها حفيّ بها عاشق!
إذا أفرط الحب يوما قتل
فألبسها الدفء ضنّا بها..
وبات قريرا.. عليه سَمَل

ولبثت القوس في صحبة باريها دهرا، تمتع بأيامها وليلاتها، ناعما برفقتها على بؤسه وفقره، كأنما هي الجنة أفاء بظلها وتدلت بأثمارها، فهي تصاحبه في هجير القفار وفي ظلم الليل أنى نزل، فيحرسها وهي في أمنه، وتحرسه هي إن أخذته غواشي الوجل، فكنت تراه في صحبة قوسه الحارسة يجوب الوهاد، ويعلو النجاد، ويأوي الكهوف، ويرقى القلل، ويفضي إلى مستقر الحتوف، فهاهنا نمر وهاهنا ذئب وهنالك الحية الفاتكة... وفيم الضرب في تلك المجاهل التي لم يكن بها من أنيس؟ إنه أراد أن يعلم قوسه الحبيبة كيف كان الزمان وكيف كان مجد القديم، وكيف كانت ظروف الدهر، وهكذا لبث الرفيقان، حتى حان موسم الحج.. فلبيا.

وبين الحجيج رآها الخاطب الذي لم يزل بصاحبها إغراء بالمال حتى نالها منه، لكن القوس كائن حي ينتزع من كائن حي، فكأنها كانت تحس ما يجري فنظرت إلى سيدها وباريها لتدعو: يا خليلي! ماذا فعلت؟ أأسلمتني؟! فتنهش الحسرة قلب الرجل نهشا، ويتردد ويتراجع، فيزيد الخاطب من مهر عروسه.

وحولهما زفرات الزحام، وأذن تميل، ورأس يطل وغمغمة، وحديث خفي، ونغية زار، وآت سأل. وظل الرجل الحيران يحاور نفسه من داخل: أيبيع قوسه؟ نعم، لا! وحوله أصوات الزحام: صوت أجش، وصوت يصل، وطنين، وهمس، وضوضاء وعوعة في زجل (الزجل هو الجلبة كأصوات

القوس العذراء

اللاعبين) فـهذا يؤج.. وهذا يعج.. وهذا يخـور.. وهذا صهل، وماذا تقول هذه الأصوات الصاخبة هنا والهامة هناك، تقول:

لـقـــــد بـاع! بـع! باع! لا لـم يبع
غـنـى المال! ويـحك! بـع يـا رجـل

وهكذا تقرأ لشاعرنا شـاكر صفحتين كاملتين فيهـما حركة وجلبة وأصوات، وأخيـرا يستسلم الرجل ويبيع، وهنا يجيء آخر بـيت من قصـيدة الشـماخ كـأنه الرتاج يخبط الخـبطة الأخيرة ليقفل الباب ويبدأ الرجل في ذهوله لما أن رأى منكبه قد تعرت عن قوسها، يقول الشماخ في ختام قصيدته:

فلمـا شـراها فـاضت العين عـبـرة
وفي الصـدر حـزاز من الوجـد حـامز

نعم باع الصـانع صنعته، وضـاع من الفنان فنه، فـأخذته الغاشية:

أجل.. لا.. أجل بعـتـهـا! بعتـهـا!
أجل بعـتـهـا! بـعـتـهـا.. لا.. أجل
وفي أذنيـــه ضـجـيج الزحـــام
و«بـع بـاع بـع بـاع بـع يـا رجـل»
أفـق! يـا خـلـيـلـي! أفـق لا تـكـن
حليف الهـــمـوم صـريع العلل
بـصــنـع يـديـك تـراني لـديك
في قـــد أخـتـي! ونعم الـبـدل
صـدقت صــدقت! نعم قـد صـدقت!
وســـــر يديك كــــأن لم يـزل
حـــبــاك بـه فـاطر النـيـرات
وباري النـبـات ومـرسي الجـبل
فـــقم! واســـتـــهل وســبـح له
ولـب لـرب تـعـــــالى وجـل
وفـــاضت دموع كـمـثل الحـميم
لذاعـــــة، نـارها تـســـتــهل
وخـــانـقـــة ذبحت صـــوته
وهيض الـلسـان لـهـا واعـتـــقل
وأغـــضى على ذلـة مطرقـــا
عليـــه من الهم مـــثل الجـــبل
أقـــام.. ومـــا إن به من حـــراك
تخـــاذل أعـــضـاؤه كـــالأشل

وبعـد أن مرت به سـاعة الذهول التي قد صيرته وكـأنه صخرة نبـتت مكانه، فبات تمثال حزن قُدَّ من صخر صلود، وتركته وحـيدا بعد أن خلا المكان من جـموع الناس، وسكن الصوت ومات الوغـى، أخذ الذاهل يفيق، ويستجـمع نشاطه وقوته، ويمشي ثقـيلا، والحسرة مـاتزال ملء ضلوعه، ينظر إلى ما أخـذه لقاء قوسـه من مال وثياب، فـيزور لأنه أعطى النفـيس ورضي بالخـسيس... وبينمـا هو يشق طريقـه في متـشابك الشـجر، لمح عـودا كالعود الذي كـان سواه قـوسا وضاع، إنها عروس أخرى، نادته من خدرها: أفق! يا خليلي! أفق! لا تكن حليف الهموم، صريع العلل.

بـصــنـع يـديـك تـراني لـديك
في قـــد أخـتـي! ونعم الـبـدل
صـدقت صـدقت!!.. نعم قـد صـدقت!
وســـــر يديك كــــأن لم يـزل.
حـــبــاك به فـاطر النـيـرات،
وباري النـبـات، ومـرسي الجـبل.
فـــقم! واســـتـــهل، وســبـح له،
ولـب لـرب تـعـــــالى وجـل.

أما بعد فهذه قصة شاعر عن شاعر عن قواس عابر، **قصة تروي أن سعادة الإنسان هي في أن يعمل ما يحب، أما إذا عمل شيئا وأحب شيئا آخر، فقد أصبح العمل بهذا الفصام نقمة أبتلي بها البشر وما كان ينبغي له**، وفي هذا الصدد أذكـر الأدباء الطوباويين ممن أعـرف، مثل صمـوئيل بتلر في كتابه «أرون» (أي اللا مكان) حيث يقص علينا كيف زار بلد النعـيم، فـإذا سر النعـيم هو أن العـمل فن وأن الفن عمل، فلكل إنسان من العمـل ما يحب، وبهذا تنزاح الفواصل بين اللعب والجد، وبين الوسيلة والغاية... وهذه هي نفسـها الرؤيا التي اخـتلج بها قلب شـاعرين عـربيين: الشمـاخ في صـدر الإسلام، ومـحمـود شاكـر في دنيا اليـوم، وتوصل الشـاعران حـتى لكأنهمـا شاعـر واحدأنشـد في أول الدهر نشيدا فـرجعت أواسط الدهر أصداء النشـيد. وإني لأستاذن أديبنا شاكـر في أن أهدي آيته هذه إلى شـعراء اليـوم ليروا بآذانهم وليسمعوا بعيونهم ـ إذا كانت للآذان رؤية وإذا كان للعيون سمع ـ كيف يكون الفن الشعري صياغـة وارتفاعا في دنيا القيم من حضيض إلى أوج.

■■ **هوامش**:

نشـر هذا المقـال في مـجلة «الكـاتب العـربي» ـ العـدد ١٥ ـ سنة ١٩٦٥م ـ من ص ١١ إلى ص ١٥.